شجون ودروس . . .

للأستاذ إسماعيل حمدى

فى مطلع العدد ٤٧١ من (الرسالة) المزبزة ، وفى «شجون» قريبها الدّارع الدكتور زكى مبارك ، درس قيّم تفضل به على من كتب فى « اتجاه رجال الأدب فى العصر الحديث » وأحب الدكتور أن يكون فى هذا الدرس على إيجازه بلاغ لمن يتورط فى الكتابة والنشر وهو مفتقر إلى محض سلامة النظرة ، فضلاً عن قوتها وحدتها واستوائها جميعاً

والدكتور رغم كفاية الفطنة والخبرة لديه من طول « ما ابتلى بزمانه وأهل زمانه » لا يزال — بمعجزة ما — يطمع فى أن يعترف متورطٌ بتورطه ، أو يتعلم مخطئٌ من خطئه ، وخاصة فى هذه الديار !

لا يا سيدى ، عد إلى آلاف المقائد التى لا تستطيع أن تحصيها ... آلاف المقائد التى كونتها ولا ريب عن الناس منذ احتككت بهم ، وعالجت من حقهم وباطلهم ، ورشدهم وسفههم ، فأنت واجدٌ فيها ما يردك إلى اليأس المطلق من هذا الطمع الذى طمعت ، إلا إذا ضربت بلا رحمة ، وانهالت ضرباتك على المقاتل فوجد صريعك مسّ الأذى وفرط الألم ، وبات بين فرار الهارب وصراخ التائب ، وأيهما اختار فحسْبنا لتستأنف القافلة المسير ، ويبلغ الكتاب أجَلَه

نعم ، فما ينبغى أن نتسلّى بالاقتراح على أحد أن ينحنى على منطقه فيضع شيئاً مكان شىء ، ويتخير مادة دون مادة ؛ فحسب الطفل لكى يعتلىْ رأسه الضئيل بالعناد أن نقترح عليه تغيير اللعبة التى فى يده ؛ فإن ذلك أحرى أن يزيده تشبثاً بها وتَوها فيها ، وشروداً فى أخيلته حولها

ولا نودُّ المضىَّ إلى بعيد فى العتب على الدكتور ، فقد يجد الناظر إلى درسه الموجز ما يشغله بشئون أخر :

ذلك أنه يرى التودُّد إلى الجماهير تهمة ظالمة يبرأ منها كرام الرجال الذين كتبوا فى الإسلام ونبيه ، ويستظهر لبراءتهم بما فى الدراسات الفذة التى قدموها من روح يضطرم بالشعور والذوق والإيمان وسائر الذخائر التى لم يألف تجار « الزُّيوف » أن يتعاملوا بها مع « الجمهور »

إن فى إحساس الدكتور بضرورة التبرئة لأولئك الأساتذة الكرام هفوة أخرى — ويبدو أننى رجعت إلى عتابه — إذ كان إحساسه هذا ينطوى بداهة على التسليم بأن التودد إلى الجماهير تهمة ! وما يتفاقم الغرور عند الصغير بأكثر من أن يكتشف فى منطق الكبير نحواً من الموافقة على بعض أوهامه ، ولن يتواضع هذا الغرور بعد ذلك حين يفزع الدكتور إلى واجب التبرئة لزملائه وفاء لهم وللحق العظيم فى دينه وتراث قومه

ولسنا ندرى لم يكون التودد إلى الجماهير — إذا افترضنا وقوعه — تهمة تثير الأنفة ، وتحرّض على المقاومة ، إلا أن يكون هذا خوفاً فى موطن الأمن ، وخجلاً فى مقام الزهو ، لا يجملان بالقلب الكبير والجبين الفخور !

سوف لا نحاكم الدكتور إلى غير « شجونه » فى نفس العدد من (الرسالة) ، فليقرأ فى آخرها هذه الكلمات من نشيده فى حب وطنه : « ولو عانت كبار الشعوب ما عانيت لشالت كفتها فى ميزان التاريخ ؛ فكيف استطعت أنت برغم ما عانيت مصدر العقل فى الشرق ، وأن تهتدى بنورك فى اللغة والدين مئات الملايين ؟ ... لن تراني إلا حيث تحب ، ولن يراني أعداؤك إلا حيث يكرهون ، ولو زعموا أنهم فى طهر ملائكة السماء » . ما معنى هذا ؟ معناه أنها وقفة شريفة لابن شريف بين يدى شعبه الذى لا يزال يقود شطراً ضخماً من العالم فى اللغة

طبع أوربة فى ص ١٩٨ ، ليتأكد القارئ أنه كان من أقدس الواجبات على الناشرين أن يراجعا هذين السفرين وغيرهما من المطبوعات ، وإلا فعملهما هذا جاء خداجاً ، ويحتاج إلى إعادة النظر فى ما طبعاه ، ومقابلته بما ذكرناه لهما

وعلى كل ، فإننا نشكرهما كل الشكر على ما قاما به من إخراج هذه الدرة الثمينة من مكنها ، وعرضها على الناطقين بالضاد بهذه الحلى البديعة ، والوشى الجاذب للأنظار ، والشوق لاقتنائه ، ووضعه فى مصف كنوز الأقدمين ، ورفع منزلتهم بين علماء الأقوام المختلفة وكتّابهم العظماء ، ومصنفيهم البلغاء .

ونحن نتوقع أن يكون طبع المجلد الثالث بعناية أعظم وتحقيق بالغ أقصى المنى ، ومنه تعالى التوفيق

(بغداد) الأب أنستاس مارى الكرملى
من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

والدين ، والفكر ، وطراز الحياة جملة ؛ فهو يعلن العصبية فى زمن العصبية الآكلة ، ويجدد البيعة فى زمن الإخاء فى السلاح أن يكون لقومه قرة أعين ، ولأعدائهم هولة حلم ، ثم ماذا ؟ ثم معناه أن الضلال القديم الذى طالما اغتال عقولاً فى هذه البلاد فذهبت تفترى فى الأدب مذاهب ، وترتجل فى الفكر طرائق ، مهما نبا ذلك عن روح الشعب الحقيقية ، ومهما تمزقت بذلك روابطنا بمن يحبوننا ، ويصطفون من حولنا ، من الأمة العربية الكبرى ، والكتلة المسلمة العظمى ؛ هذا الضلال ينبغى أن تنقشع بقاياه توًّا وإلى غير رجعة ، ومن شاء أن يقول ، ومن شاء أن يفكر ، ومن شاء أن يعمل فليأخذ مكانه الطبيعى تحت هذه الراية والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ؛ وإلا فهو خائن يطوق بعاره ، ومجرم يشار إلى سيماه ، وعدو لا نسلم عليه تسليما ، وإنما نثأر منه ثأراً ، وندسه فى التراب ، وننفض من غباره الأيدى

كأنَّ الدكتور يخطبنا هذه الخطبة تماماً حين هتف بذلك المقطع الذى نقلناه من نشيده ، فكيف إذن نقبل منه التسليم بأن فى التودد إلى الشعب ما يزرى ، وهو لا يرى إلا أن يكون رجل الفكر والأدب « رجل الشعب » أولاً : فى رأسه من خواطره ، وفى صدره من عقائده ، وفى ضميره من أشواقه ...

فإذا كانت أشواق هذا الشعب الروحية والثقافية والاجتماعية ظاهرة ظهوراً صارخاً ، بحيث لا تخطئها إلا العين المغلقة ، ولا يمر بها ظرف أو مناسبة مواتية ، إلا أثبتت بظهورها ذاك أنها ليست موجودة ومعروفة فحسب ، بل وأصيلة ونامية معاً ، لأنها تنفجر من تاريخ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، بملء ما فى هذا التاريخ من أقدار كبيرة ، وأطوار عميقة ، لم تكن قط خرافة زينها لفظ ، ولا ساحراً ينفثه صوت ، ولأنها تدور مع الدم فى أجساد الملايين الذين تضرب ظلالهم شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، على قارتين ، وثلاثة بحار ، وعديد من الأنهار ، وتقع جباههم منذ هذا العمر المبارك على تلك الربوع والبطاح العريضة ، ساجدة لله فى كل يوم خمس مرات ... نعم ، وإذا كانت هذه الأشواق هى التى تملى قواعدها الخاصة لنهضة هذا الشعب بنفسه وبالصفوف الرائعة المتراصة من حوله ، وهى التى تعين الأفق الذى يترامى إليه نظر الشعب قوىّ التحديق ، شديد الحماليق ... إذا كان ذلك كله كما نحس ، وكما لا نشك ، فما بد من أن يصطلى كل أديب ، وكل مفكر ، وكل منتج ، بقبس من تلك الأشواق الحارة الخالدة . فهذا القبس وحده هو الذى يمده بالصواب فى تصوره لنوع النهضة المنتظرة والمحتومة معاً ، ويمده بالقدرة على المشاركة الفذة فى إقامة الصرح وتأثيله ، وبدونه لا يكون إلا متعسفاً حائراً ، لا يبرح فى حيرة وتعسف ، يدور حول نفسه ، ويكذب أبداً على نفسه ، حتى تكبه عثرة ، أو تلقفه هاوية ، وبدونه لا يكون نسبه فى أدباء الشعب ودعواه العمل باسم الشعب ، وعيشه على مرافق الشعب ، إلا تزويراً ونفاقاً وسرقة ، وما لا تعده اللغة للتشريف ، ولكن للسباب

ثم ما هو الأدب ؟ أليس هو : كالعلم ، والفن ، وكالاقتصاد نفسه ، قوة من القوى المختلفة فى الحياة العامة ، ينبغى أن تهدف كلها صوب غايات الشعب العليا ؛ وفى خلال سيرها تلقاء هذه الغايات ، ينبغى أن تستفتى حاجاته الحقيقية ، وتستعين بأحلامه الروحية على ضمان النجاح ، وسرعته أيضاً ؟

هذا الذى تقرره من بدائه كل إصلاح وكل نهضة ، وليس من فنهما المعقد ، ولا من كهانتهما الغامضة ، حتى يكون ثم موضع للجدل أو الحذلقة

فمن يحاول عزل « الأدب » عن كافة القوى الأخرى المتضامنة فى الحياة العامة ، ويشكك فى واجب تضامنه مع تلك القوى ، وارتكازه أبداً إلى ضمائر الشعب وأحلامه القدسية ، ويزعم أن فى عودة الأدباء بقلوبهم الشريدة إلى وطنها المأنوس بين قلوب قومهم بعد طول انتظار للوفاء والبر والنبل ما يثير شهوة الفضول والعجب الأبله ، لا يفهم الأدب إلا فهماً بوهيمياً ، ولا ينتج فيه إلا ضرباً من الكلام ينهمك فيه الطابع ، والمصحح والناشر ، والناقد ، ليعالج به أخيراً ملل تافه ... !

إن هذا الذى كتب فى اتجاه رجال الأدب فى العصر الحديث لا نتهمه بالمغالطة حين زعم ثانية أن تأريخ عصر النبوة رجعية ، إذ كانت المغالطة مطوية على ذكاء وفهم فى الواقع وإن لم يكن ذكاء شريفاً ، وإنما نتهمه بالغلط الذى لا يرادف التجاهل ولكن يرادف لفظاً آخر . ما معنى الرجعية ؟ أليست هى الانتكاس والتقهقر ، وإيثار الأدنى على الأعلى ؟ فأى سمو وقع دونه الرجال

الذين يؤرخون عصر النبوة ؟ وأية فكرة أو حقيقة تكشفها دراسة هذا العصر تنحط مرتبة عما تكشفه دراساتهم الأخرى فى موضوعات أخرى ؟ وأى شر تبتلى به حياتنا العقلية — ودع عنك حياتنا الوجدانية التى هى محور كل عمل أدبى — إذا أضيفت هذه الدراسة إلى سائر الدراسات التى استبدت بأقلام الكتاب منذ كانت لهم أقلام ؟ ألا تجد عقولنا فيها من عافية الفكر وأريحيته ما يتلمسه الضمير الإنسانى فى كل ثقافة كائنة ما كانت ليصح به ويترعرع ويزكو ؟ !

هذه أسئلة لا تطلب جوابها من أحد ، ولا تستجديه ، فهو ملء كل نفس تفهم « الأدب » ولا تزرى بقدره . لا ، بل إنه إذا كان كل شىء فى الحياة يتشكل ويتطور ، لكى لا ينبو عن طبيعة جوه ، ومقتضيات بيئته ، فما بد من أن يتحدث الأدب فى كل عهد بلغته ، ويتوخى من هذه اللغة ما يشوق الأذن المائلة ، ويجاوب الحنين السارى ، ويعجل البعث المرتقب ، ونحن نعيش فى حقبة من تاريخنا لا يصلح لها إلا هذا ، فلو اشتغل الأدب بما يبعد كثيراً أو قليلاً عن هذا النهج لكان ملتوياً على روح الشعب ، جامداً عن مجاوبته ، وتلبية حاجته ، ومثله فى هذه الحالة — وفى المنطق البوهيمى — كمثل اللحن الناعم النائم تعزفه لجندىّ راحل إلى الجبهة ! ...

فأى غلط بعد غلط يتعفن به منطق فرح به صاحبه فرحاً مضحكاً وهو يناقش « العقاد » فى بعض ما كتب ! نعم لقد كان يبدو فى سياق فرحه ذاك أن منطقه لا يثقبه الرصاص نفسه !

كم اشتغل المستشرقون بتأريخ عصر النبوة ، وهذه حقيقة معروفة نود أن نوجه إلى منطق صاحبنا سؤالاً خاصاً بها ، وهو سؤال أخير نضيفه إلى تلك الأسئلة المخيفة التى وجهها إليه الدكتور فى خلال درسه القيم ، والتى تتضمنها هذه الفقرة بالذات : « لم يقل أحد إن هيكل كان رجعياً حين ترجم لجان جاك روسّو ، ولم يقل أحد إن العقاد كان رجعياً حين ترجم لابن الرومى ، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبى العلاء ، ولكن الرجعية أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتأريخ عصر النبوة ! ! لأنه مصدر من المصادر الدينية الخ » أإذا اشتغل المستشرقون بهذا الموضوع ومثله ؛ وكتب فيه كتاب أوروبيون — وكم حدث ويحدث — يكون ذلك أيضاً « رجعية » و « تودداً للجمهور المصرى » ؟ ! أم ينعت ذلك عند صاحبنا ومنطقه العتيد بالفحولة العقلية ، والثقافة الإنسانية ، وما إليهما من النعوت التى تكبر على الرجعية ، أو الرياء ، أو اللغو الذى تكرمنا عن مناقشته والذى سماه إيمان المقترب من اليوم الآخر ؟ !

ندع الآن المنطق العتيد يحصى قائمة الخسائر التى نزلت به ، ونحن — فى نفس الوقت - على استعداد لكى نضيف إلى هذه القائمة أرقاماً أخرى ، نقول له ذلك قبل أن يتعجل فينشر مقالاً أو بعبارة أخرى — بلاغاً يزعم فيه أن الخسائر طفيفة ! !

وبعد ، فلم يفرغ درس الدكتور من نواح أخرى ذات بال ، فحسبنا ذلك اليوم ، وإلى فرصة قريبة .

(الأقصر) اسماعيل حمدى

ابنة الطحان

للورد ألفرد تينيسون

إنها ابنة الطحان ، وقد نمت وتطورت حتى غدت محبوبة فتانة . فيا ليتنى جوهرة فى القرط الذى يرتجف معلقاً فى أذنها ، لأننى إذ ذاك وأنا فى حلقة من ذهب أمسّ رقبتها البيضاء الدافئة ليل نهار . أو ليتنى النطاق الذى يحيط بخصرها الدقيق الرشيق فأحس بضربات قلبها فى ساعات الحزن وأويقات الراحة ، وأعلم ما إذا كانت الدقات متئدة منتظمة ، وأحيط بها من جميع أطرافها ضاغطاً عليها بحنان ! أو ليتنى حلى معلقة فى رقبتها فأرتفع وأهبط بانتظام على صدرها البض ، مع تصاعد ضحكاتها وزفراتها ، وأستقر فى مكانى هادئاً جداً بحيث لا تخلعنى حتى عند ما تذهب لتنام !

(بغداد) صفاء خلوصى